الفصل الأول
أحوال مصر قبل مجيء الفاطميين

انتشار المسيحية - الفتح العربي - الولاة الراشدون - الولاة الأمويون - الولاة العباسيون - انتشار الاسلام - الاستعراب - ولاية الطولونيين.

وقبل كل شيء، يجب أن نعرف أحوال مصر، التي لم تكن عربية في الأصل أو مسلمة. فنعرف أن أهلها كانوا شعباً مسيحياً، تلقف المسيحية منذ ظهورها؛ وليس أدل على ذلك من قول الروايات المسيحية بأن أول من دعا لها في مصر هو القديس مُرْقُص [1]، أحد تلامذة المسيح. ولكن الأسانيد التاريخية، مثل: مراسيم التعذيب - كما وردت في أوراق البردى[2] أيام الرومان - تدل على أن المسيحية انتشرت في مصر في عهد الأمبراطور دسيوس "Decius"، الذي أصدر منشوراً في سنة 250م، يطلب فيه من كل مصري أن يأخذ شهادة رسمية، بأنه قدّم قرباناً للآلهة الوثنية؛ وذلك بقصد منع المصريين من اعتناق المسيحية. ويظهر أن المسيحية انتشرت بصفة مؤكدة انتشاراً كبيراً في كل أنحاء مصر، في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل الرابع؛ وسمي عصر الأمبراطور دقلديانوس "Diocletianus"، في مصر بعصر الشهداء[3]؛ لكثرة من عُذب من المسيحيين المصريين. ويدل على انتشار المسيحية المبكر في مصر، أن الإسكندرية كانت إحدى كراسي[4] المسيحية الأربعة الهامة فيما بعد؛ وأن رئيسها اختص بلقب البابا[5] (الحبر الأعظم)، وهو اللقب الذي أخذه منه أسقف روما بعد ذلك.

وقد اتخذت المسيحية في مصر منذ انتشارها شخصية خاصة؛ إذ كان التعذيب الذي تعرض له المصريون المسيحيون، سبباً في أن أوجد نظام الرهبنة، وهو نظام أساسه مسيحي، ظهر في مصر قبل أي مكان آخر. فكان المصريون يهربون بعقيدتهم المسيحية إلى الصحارى؛ بحيث أصبحت الرهبنة المثل الأعلى للمسيحية المصرية؛ وينسب المؤرخون إلى الأنبا أنطون[6] (أنطونيوس الكبير) المصري، أنه أول من بنى الديارات وجمع الرهبان بمصر. كذلك اعتقد المصريون في الطبيعة[7] "Phusis" الواحدة للمسيح، وهو ما عُرف بالأرثوذكسية أي الدين الصحيح، وأيضاً اليعقوبية، نسبة إلى يعقوب البراذعي[8]، الذي بشر بها؛ وذلك على عكس غالبية المسيحيين في ذلك الوقت، الذين قالوا بالطبيعتين الإلهية والبشرية للمسيح، وخلطوا العقيدة المسيحية بالفلسفة اليونانية السائدة.

وقد كانت الدولة البيزنطية، التي ورثت الرومان في الشرق، وتحولت إلى المسيحية، أكبر نصير لعقيدة الطبيعتين للمسيح، حتى أن هذه العقيدة سُميت أيضاً بالملكانية[9]، نسبة إلى

الملك أي الأمبراطور البيزنطي. فحاولت هذه الدولة بما عقدته من مجامع "Synodi" كثيرة، تقريب وجهات النظر بين أتباع العقيدتين، ولا سيما في مجمع أفسس[10] المشهور، ولكن دون جدوى. كذلك لجأت إلى الشدة مع المصريين؛ بحيث أنها اضطهدت الأرثوذكسية، واستحلت قتل المصريين وضربهم، وحتى إغراقهم في البحر [11]، على يد قيروس "Cyrus" الذي أرسلته بيزنطة إلى مصر، وسماه المصريون المقوقس[12] سخرية. ومع ذلك بقي المصريون يعتقدون في الطبيعة الواحدة للمسيح.

كذلك واكب انتشار المسيحية في مصر حركة قومية. فقد جعل المصريون لغة عقيدتهم المسيحية؛ لغتهم المصرية القديمة، التي كانت قد حاربها المستعمر اليوناني والروماني ثم البيزنطي؛ فيها كتب المصريون الأناجيل والتوراة؛ وذلك على عكس المسيحيين الآخرين؛ الذين جعلوا لغتهم الدينية اليونانية أو اللاتينية. فكان انتشار المسيحية في مصر، معناه عودة اللغة المصرية القديمة، التي اتخذت مظهراً أكثر تبسيطاً من الديموطيقية القديمة، وعُرفت بالقبطية، آخذة اسمها من اسم مصر"Aiguptioin"، الذي هو تسميه يونانية الأصل؛ بحيث أن كلمة قبطي[13] تدل على المصري عند العرب، ولا تزال تدل على مسيحيي مصر إلى الآن. فكان المصريون منذ اعتناقهم المسيحية مدفوعين بروح قومي، يتمثل في ظهور اللغة القبطية، وما ظهر بعد ذلك من آداب وفنون، متأثرة بطابع الدين الجديد، ومعبرة في جملتها عن شخصية مصر القديمة. وبذلك يصدق قول المؤرخ "Saurat" [14] في كتابه: تاريخ الأديان؛ بأن الشعوب قد تخلق الأديان.

فلما جاء العرب لفتح مصر في سنة 18 هـ/639؛ وكان المصريون يئنون من الاحتلال البيزنطي الأجنبي، والاضطهاد لعقيدتهم؛ فإنهم مع ذلك لم يقبلوا كشعب أصيل أن ينتقلوا كسلعة من يد محتل إلى آخر. فقاوموا الفاتحين العرب في الفَرَما[15] وعين شمس[16] وحصن بابليون[17] والفيّوم [18] والإسكندرية العظمى[19] – العاصمة وقتئذ – وحتى في القرى الكثيرة في منطقة الدلتا، مثل: [20] طوخ[21] وسُلْطيس[22] ودَمسيس[23] وقَرْطَسا[24] وبَلْهيب[25] ودِمياط[26] ودميرة وأشْمون وتنّيس[27]؛ بحيث أن العرب لم يستطيعوا فتح هذه القرى إلا بعد أن أحرقوا المزارع وسبوا أهلها[28]؛ واستمر جيش من سكان الدلتا يحارب سبع سنوات[29] أو اثني عشر عاماً[30] كما أن العرب كانوا يخافون من أن تنتفض مصر في أي وقت[31].

ويظهر أن أغلب مؤرخي المسلمين لم يرضوا أن يذكروا هذه المقاومة إلا تلميحاً، حتى لا يظهر المصريون بمظهر المقاوم للمسلمين؛ وذلك لأن مصر فيما بعد تحول أهلها إلى الاسلام، واحتلت مركز الزعامة فيه. وعلى العكس ذكروا كثيراً أن المصريين عاونوا الفاتحين ، بما كانو

يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها[32]، ويصلحون لهم الطرق ويقيمون الجسور، لتسهيل تنقلات جيوشهم. ولكننا ندرك مقاومة المصريين للفاتحين مما ذكره المؤرخون عن مقاومة قرى مصر ومدنها، ومما وقع فيه المؤرخون المسلمون من الإختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها، وهي مسألة فتح مصر: وهل كان بصلح أو عنوة[33]، أو حتى هل كان للمصريين عهد، أو أن بعضها فتح بالسيف، وبعضهاصلحاً[34].

وعلى كل حال تمكن العرب من اتمام فتح مصر في عام 21 هـ/642؛ بسبب فتور مقاومة المصريين، وانسحاب البيزنطيين. وكرمز لفتح العرب لمصر، أنشأوا فيها معسكراً قرب حصن بابليون، سموه "الفُسْطاط"[35] – وهو اسم لعله من اللاتينية"Fossatum"، أو من العربية بمعنى الخيمة أو المدينة[36]– فسكنته قبائلهم في خطط أو قطائع[37]، وسموه أيضاً "مصر"[38] وذلك لوقوعه على الحدود الصحراوية، مثل: البصرة والكوفة؛ وإن عُرفت أيضاً " بفسطاط مصر" [39]، أي بالاسمين معاً، ولقد أصبح هذا المعسكر مدينة عظيمة، حتى لما أقام الفاطميون عاصمتهم القاهرة[40]؛ فعُرفت إلى وقتنا الحاضر بمصر القديمة[41]. كذلك بنى العرب في الفسطاط مسجدهم الأول، الذي عُرف باسم قائد الفتح: عمرو بن العاص – ولا يزال يحمل اسمه إلى وقتنا – أو حتى باسم: تاج الجوامع، أو الجامع العتيق.

ولقد بقيت مصر بعد الفتح العربي لمدة طويلة بعيدة عن حوليات مؤرخي المسلمين. فبعد الفتح لم تكن الخلافة الإسلامية في الحجاز تهتم بمصر إلا من حيث أنها تنتج الحنطة أو القمح[42]، وورق البردى، الذي يكثر في متنقعات الدلتا والفيوم، وأنها تصنع النسيج، أو ما كان يُعبر عنه وقتئذ بدق الطروز[43]، وهي الصناعة التي اشتهرت بها مصر منذ الفراعنة؛ وخصوصاً أن العرب قبل الإسلام، كانوا يستوردون منها النسيج المسمى القباطي[44] نسبة للقبط، لكسوة الكعبة، والديباج [45] وهو الحرير. وكذلك؛ أُعتبرت مصر عند العرب خزانة أميرالمؤمنين[46] – أي الخليفة – التي يُحمل منها القوت والمال إلى جنده. وليسهل نقل خيرات مصر الكثيرة إلى عرب الحجاز، أعادوا حفر القناة، التي كان الفراعنة قد حفروها بين النيل والبحر الأحمر؛ فعُرفت هذه القناة بعد الفتح العربي باسم: خليج أمير المؤمنين[47]. وفي أخبار يوحنا النقيوسي يقول: إن العرب أجبروا المصريين على حفر هذه القناة؛ وأن هؤلاء تعذبوا كثيراً[48]. يضاف إلى ذلك، أنه فرضت الجزية على الرؤوس، والخراج على الأرض، وقُرر على أهل القرى ضيافة العرب إذا مروا بهم[49]. ومع ذلك؛ فكثيراً ما كان الخليفة عمر بن الخطاب يعيب على عمرو في كتاباته إليه[50]، تراخيه في إرسال مال مصر. ولما تولى عثمان بعد عمر، وعزل عمرو عن ولاية مصر، لم يهتم عثمان إلا بما يأتيه من مال مصر؛ وقال لعمرو[51]: "درّت

اللقحة بأكثر من درّها الأول"؛ فأجابه عمرو: "أضررتم بولدها ... إن لم يمت الفصيل". وكانت هذه الحالة – كما يظهر من وصف المؤرخين – أن جعلت شهب الحجاز وكأنه يعيش على حساب شعب مصر.

وعلى النقيض من ذلك، فإنه خلال حكم هؤلاء الخلفاء الأوائل، تمتع المصريون بحريتهم الدينية، التي كانوا قد افتقدوها في ظل الحكم البيزنطي. ففي أول حكم العرب، كتب عمرو للبطريرك بنيامين، الذي كان قد اختفى وسائر الأساقفة أثناء الحكم البيزنطي في الصحراء والجزر[52]؛ فعاد بنيامين إلى الإسكندرية بعد ثلاث عشرة سنة؛ فأمره عمرو بضبط أحوال الكنيسة القبطية[53]. كذلك لم يتدخل الخلفاء في عقيدة المصريين الدينية، أو انتخاب بطاركتهم، بل انحازوا للأرثوذكسية، عقيدة غالبية المصريين؛ بحيث غلبت على كنائس مصر وديراتها، وعاد كثير من القبط إليها بعد أن كانوا قد أُضطروا إلى الخروج عنها نتيجة لتعذيب البيزنطيين. كما أن عمراً ومن خلفه من الولاة، لم يمسوا إطلاقاً أموال الكنيسة القبطية، ولم يأخذوا الجزية من الرهبان ورجال الدين. لذلك بُنيت في هذا العهد كنائس كثيرة، مثل: كنيسة القديس مرقص[54] في الإسكندرية، ومار جرجس في الفسطاط. كذلك، لما كان العرب خالي الوفاض من الحضارة؛ فإنهم أبقوا الكتّاب القبط في الإدارة، وأحلّوهم مكان البيزنطيين.

ولكن انقلبت حالة المصريين إلى السوء بانتقال الخلافة من الراشدين، الذين كانوا يقيمون بالحجاز إلى أسرة بني أمية، التي نقلت مركز الحكم إلى الشام. وأرادوا استغلال مصر في حروبهم ضد بني هاشم؛ فأسرعوا بالاستيلاء على مصر من واليها الهاشمي، على يد عمرو ابن العاص، الذي عاد للتعاون معهم، بعد أن كانوا قد نبذوه في أيام عثمان. ومنذ أن استولوا عليها، اعتبروها فُتحت عنوة، وأن أهلها عبيدهم، لهم أن يزيدوا عليهم ما يشاؤون من المال[55]. بل إن معاوية أول خلفاء الأمويين، كان يعتبر الذين أسلموا من أهل مصر أشبه بالناس[56]، أما القبط فليسوا من الناس، والناس في رأيه هم العرب وحدهم. فكان يتولى حكم مصر من قبل الأمويين أولاد الخلفاء وأخوتهم والمقربين؛ حيث يعيشون فيها عيشة الخلفاء أنفسهم. ولم يعد يهتم ولاة الأمويين إلا بجمع المال، ومن يتولّها، يمضي إلى الإسكندرية عند بطريركها؛ ليحاسبه على المال الذي يفرضه على القبط، ويعتبره مسؤولاً عن جبايته[57]. فعاد الحال إلى ما كان عليه أيام البيزنطيين، وأصبح الناس يهربون إلى الصحارى.

كذلك انتقلت إلى مصر قبائل العرب في عهد الأمويين، ولا سيما في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي أسكن شرقي الدلتا في منطقة الحوف الشرقي بعض بيوت قيس[58]، التي أنتزعت أراضيه من المصريين، ثم نزلت الصعيد والريف[59]. فكانت هذه القبائل العربية تقض مضاجع المصريين في القرى، وأعادت لهم ذكرى غزوات البدو لمصر في عصور الاضطراب في أيام الفراعنة. فكان هؤلاء البدو يستولون على الأراضي، ويقومون بالزرع، وتربية الخيول والإبل، أما من كان يسكن منهم الجبال والبراري؛ فكانوا يهاجمون الأديرة؛ ويقتلون الرهبان وحتى الراهبات[60]. وعلى الرغم من أن أحد الخلفاء الأمويين الصالحين، وهو عمر بن عبد العزيز أراد أن يمنع الظلم عن المصريين؛ بحيث أرسل إلى عامله في مصر يقول: فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً[61]؛ إلا أنه لما مات عمر عاد ولاة الإمويين إلى سيرتهم القديمة.

وزادت الأمور سوءاً للقبط؛ بسبب تدخل الولاة الأمويين في حريتهم الدينية؛ وذلك على عكس سياسة التسامح في عهد الراشدين. ففي خلافة يزيد بن معاوية، تمكن شخص من الملكانيين، لقاء دفع مبلغ من المال إلى الوالي، أن يأخذ تفويضاً بمقتضاه يتسلط على الأرثوذكسيين، وهم الغالبية؛ بحيث أُضطر بطريرك هؤلاء إلى الإختفاء[62]. أما مروان بن الحكم الذي تولى الخلافة بعد معاوية بن يزيد؛ فإنه كان فضاً مع المصريين؛ بسبب أنهم كانوا يميلون إلى ابن الزبير[63]، الذي قام بفتنة ضد الأمويين. كذلك أمر الوالي عبد العزيز أخو الخليفة عبد الملك، وكان يحكم في مصر؛ بضرب البطريرك بالسياط[64]، وهو أول من فرض على الرهبان الجزية، وكانوا مُعفين منها. وفي خلافة يزيد بن عبد الملك، كسرت الأصنام والتماثيل في الكنائس[66]. وفي زمن هشام، كان الولاة يضعون حلقة من حديد في يد الرهبان[67]، وكل من وجد بغيرها تقطع يده.

وعلى العموم ، في هذا العهد الطاغي، لم يستكن المصريون، ويذكر المقريزي أنهم كانوا متكبرين على عمالهم، ويعرضون[67] عنهم. كذلك قاموا بثورات عارمة، عبّر عنها المؤرخ نفسه، بقوله: "إنتفاض القبط" [68]. وكانت أولى ثوراتهم الكبرى في عهد هشام، بدأت في قرية اسمها بَلْهيب، عُرفت من قبل بمقاومة أهلها للفاتحين العرب. وقد عمّت هذه الثورة الدلتا والصعيد، واستمرت من سنة725/107 إلى سنة 739/121؛ كوّن فيها المصريون الجيوش، التي حاربوا بها جيوش الخلافة الأموية. وفي إحدى المرات، أجبر المصريون العرب على الخروج من الدلتا، والتراجع بكل فلولهم إلى دِمياط. ولكن الخليفة هشاماً أرسل نحوهم حنظلة بن صفوان في سنة 739/122؛ فتمكن من القضاء على ثورتهم؛ بعد أن استعمل القسوة الشديدة، وقتل أناساً